

الرجاء في الله مع العمل سمة من سمات المؤمنين الصادقين

إخوة الإيمان: أوصيكم ونفسي أولاً بتقوى الله تعالى وطاعته، فإنها من وصية الله وروح عبادته، وتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء، والالتجاء إليه بصادق الرجاء، عباد الله: حديثنا اليوم عن صفة عظيمة من صفات المؤمنين، وسمّة من سمات المسلمين، وعن خلقٍ رفيع يدل على صفاء الإيمان وصدق التوجه إلى الله، الذين يعرفون ربهم ويتقون بوعده، ولكنهم لا يأمنون مكروهه، ألا وهي الرجاء في الله، ذلك الرجاء الذي يملأ القلب ثقةً برحمة الله، وطمعاً في عفوه، فالرجاء يحفز العبد على الطاعة، ويمنعه من اليأس والقنوط، بل الرجاء يدفعك للعمل، ويمنعك من اليأس، وتثقف بطفه وكرمه، ولا سيما نحن في زمان كثرت فيه الذنوب، وضاعت فيه الصدور، فلا علاج لنا إلا برجاء الله والفرار إليه، وتقديم الأعمال الصالحة، فإن رحمته وسعت كل شيء، فالزموا الرجاء في الله مع العمل، فالمؤمن الصادق لا يفتقر في عمله، ولا يركن إلى الأمنيات الكاذبة، بل يعمل ويرجو الله، فالرجاء الصادق لا بد أن يقترن بالعمل، لأن الرجاء في الله لا يعني الكسل وترك العمل، بل هو دافع للمزيد من الطاعات، ومحفز لتترك المعاصي، المؤمن يعمل، ويخاف، لكنه يرجو الله أن يرحمه، فلا يفتقر بعمله، ولا يقنط من روح الله، وفي الحديث الصحيح القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يروي عن ربه: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني عقرت لك على ما كان منك ولا أبالي [أخرجه الترمذي] والمؤمن إذا عمل العمل لا يتكل عليه، بل يرجو من الله أن يقبله وينيبه عليه، فهو يرجو أن يكون الله تقبل عمله فيسيبه عليه فيرحمه في المستقبل، والرجاء في الله من أعمال القلوب الجليلة التي تبعث على العمل والجدّ وحسن الرجاء في الله، وهو الأمل وعدم اليأس، والتوقع لما فيه خير ونفع، فالزموا الرجاء، واحذروا الغرور، وأكثروا من الاستغفار، وادعوا الله وأتمم موقنون بالإجابة، اللهم اجعلنا من الراجين لرحمتك، العاملين بطاعتك، الخائفين من عذابك، عباد الله: الإنسان بلا رجاء يضيّق في وجهه كلّ واسع ويتعذّب كلّ قريب، ويعسر كلّ ميسور، فالرجاء في الله ضروري للسائر إلى الله والعايد لربه، لو فارقه لحظة تلبّ أو كاد يتألّف؛ لأن المسلم يدور ما بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة وهداية يرجو حصولها وثباتها، وقرب من الله يرجو الوصول إليه، إن أحسنت وعبدت وأطعت واستقيمت وكنت من أعبد الناس، فلا بد أن ترجو القبول من الله، وإن عصيت وابتعدت وعانددت وأذنبت، فلا بد أن يصاحبك الرجاء في عفوه الله ومغفرته، فالرجاء في الله تعالى عبادة جليلة من أعمال القلوب الجليلة، الرجاء في الله معناه: الاستبشار بجدود الله وفضله، والطمع بإحسانه وعطائه، وتعلق القلب به، والشعور بالثقة والطمأنينة لحصول ما عند الله من الخير والنعيم في الدنيا والآخرة، حيث يرجو المؤمن من الله المغفرة وعدم دخوله النار، فيسعى بأخذ الأسباب التي تمنعه من دخوله النار واستحقاق عذاب الله، ويعمل ويرجو القبول منه سبحانه، وإذا أذنب تاب ورجا قبولها من الله تعالى، قال ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين: أجمع العلماء على أن الرجاء لا يصلح إلا مع العمل، حيث دلّ على ذلك قوله تعالى: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [الكهف] هذا هو ميزان الرجاء: أن تعمل عملاً صالحاً خالصاً، وتترك ما يغيظ الله، وتسأله القبول وترجوه الرحمة، أما الرجاء في الله بدون عمل يسمى تمنياً باطلاً وغروراً أو رجاءً مذموماً، لنا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله ولا يخاف من الله أن يظلمه، فإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وفي الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل على مريض فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال له: ما اجتماعاً في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف (رواه ابن ماجه في كتابه الزهد) فالرجاء هو التعلق بالله، وعدم التعلق بمخلوق، ولا بقوة العبد ولا بعمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسباباً، وهو لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى، ولهذا قال الله تعالى: فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجَبْ [الانشراح] فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده، فالقلب لا يتوكل إلا على من يرحمه، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه، غير ناظر إلى الله؛ كان فيه نوع من التوكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقاً إلا خاب ظنه فيه؛ وكلما قوي الرجاء وطمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته له وخبرته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسسه منه فيوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء منه يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله سبحانه (ابن تيمية العبودية) قال الله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ [الإسراء] فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، عباد الله: الخوف والرجاء كجناحي الطائر؛ إذا استويا استوى الطائر وم طيرائه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت، والرجاء ليس مقصوراً على الآخرة، بل هو حاصل في الأمور الدنيوية، فالإنسان قد يرجو من الله مالاً أو ولداً أو زوجاً، أو وظيفة أو زوال مرض، أو العثور على مفقود، كما جرى من نبي الله يعقوب عليه السلام حين قال: يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [يوسف] وكذلك رجاء الله في الأمور الدنيوية أمر مهم جداً؛ لأن المؤمن متى نقص رجاءه بالله في أمر الدنيا وقع في الشرك الخفي الذي لا يكاد أحد يسلم منه إلا من عصمه الله تعالى، فعلى المؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء في عبوديته لله، ويعمل حتى يتحقق له مطلوبه ومراده.